الحنين إلى الوطن

في تراثنا الشعري

بقلم : الدكتور حسن فتح الباب

إن شعر الغربة والحنين إلى الديار والأحباء أصيل في تراثنا العربي ، لما يعبر عنه من مشاعر جياشة ، ناجمة عن طبيعة الانسان العربي وقيمه الأخلاقية والانسانية .

الأرض والانسان هما محور التاريخ البشرى . وما الحضارة الا ثمرة لقائهما وحصيلة تفاعلهما . فالعلاقة بينهما علاقة حميمة تقوم على التأثر والتأثير والترابط والتكامل . ومن ثم نزلت الديانات وقامت الفلسفات وحركات الاصلاح والتنوير والكشوف العلمية ، لتنظيم هذه العلاقة تنظيما يكفل عمار الأرض وسعادة الانسان .

كما نشأت الفنون والآداب للتعبير عن مشاعر الفرد والجماعة في رحلتهما الأزلية ، اذ يضربان في الأرض ويمشيان في مناكبها لتحقيق ما يتطلعان إليه من آمال ، وما ينشدانه من أهداف في سبيل اقامة عالم أكثر عدالة وأمنا وحرية .

ويبدو إرتباط الانسان بالأرض أوثق ما يكون في تعلقه بوطنه وهو مقيم في حماه ، وفي حنينه إليه وهو ناء عنه . وتشبه هذه الرابطة في جوهرها صلة الوليد بأمه ، والثمرة بالبذرة . وكأن الأرض اذ يدافع عنها أبناؤها عرض تبذل دونه الحياة حفاظا عليه أن يثلم أويمس . واذا كانت غريزتا السيطرة والجشع تقفان خلف الحروب العدوانية ، فان الكثرة الغالبة من الحروب العادلة المشروعة في التاريخ كانت دفاعا عن الوطن وصونا لحرماته . وقد عبر الشاعر أحمد شوقي « عن تلك العاطفة الجياشة التي يكنها المرء للأرض التي ولد عليها ونشأ في أحضانها ، أبلغ تعبير حين قال :

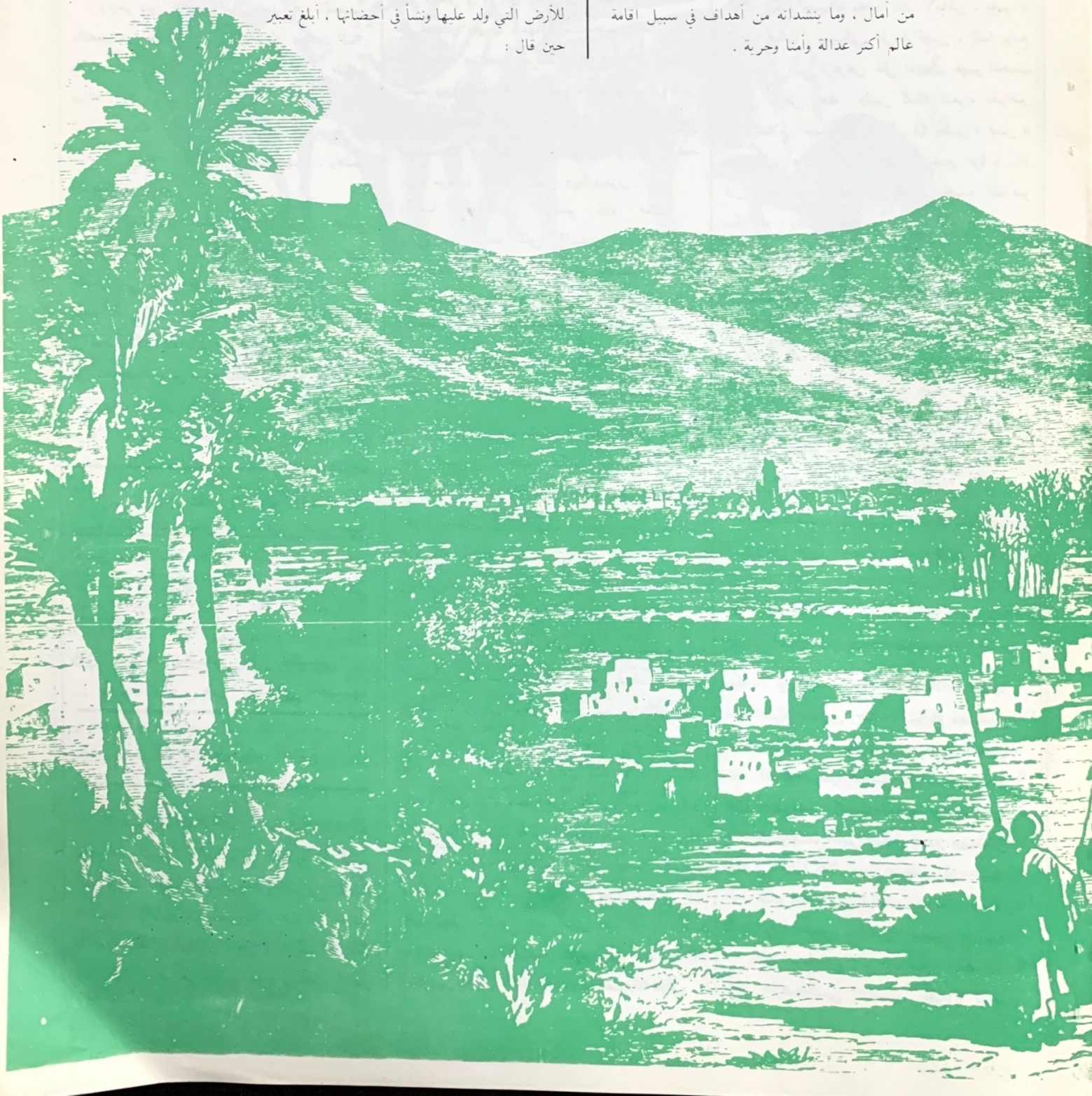

قد يهون العمر الا ساعة
وتهون الأرض الا موضعا

وليس ذلك الموضع من الأرض الذي يجل عن الهوان ، ويسمو الى مرتبة التقديس ، الا الوطن ، فالوطن عزيز مهما لقى المرء من شقاء على أرضه ، وهو أحق من النفس والتضحية والفداء ، لأن في بقائه بقاء الجماعة ، ولا حياة للفرد اذا ذهب قومه .

ويزخر ديوان الشعر العربي منذ أقدم العصور بالتعبير عن عاطفة الانتماء الى الوطن والحنين اليه . ولا عجب في ذلك ، فالعربي وفي بطبعه ألوف بمنزعه ، حتى يكاد تاريخه أن يكون تجسيدا لشيمة الوفاء ، وتمجيدا للغيرة على الوطن ، وإيثاره على ما سواه من زينة الحياة الدنيا ومباهجها ، وتخليدا للشهداء في سبيله .

ولو أننا تصفحنا دواوين شعراء العرب ، الذين تغنوا بأوطانهم في الجاهلية ، لأدركنا أن عشرات القرون التي مضت على رحيلهم لم تستطع أن تخفي الوهج الذي يشعه غناؤهم حبا للوطن وشوقا إليه ، أو أن تحجب تلك النفحات العبقة التي تصافح قلوبنا من أشعارهم . وليس مرجع ذلك إلى صدق مشاعرهم وحرارتها ، ولا الى بلاغتهم في الافصاح فحسب ، بل لأن المعاني التي تضمنتها قصائدهم ، على درجة عالية من السمو بحيث ، وجدت طريقها الى التراث الانساني من أوسع أبوابه . ومن ذا الذي ينسى ذلك البيت المأثور الذي يعلل فيه شاعرنا القديم حبه العميق لوطنه تعليلا مكتمل الصدق بالغ التأثير ، على الرغم من بساطة الفكرة واقليمية الصور التي استخدمها الشاعر :

بلاد بها نيطت على تمائمي
وأول أرض مس جلدي أديمها

الروح المحلية باب العالمية

ان هذه البساطة أو التلقائية هما السر الكامن في سحر هذا البيت . فالعالمية في الشعر وفي سائر الفنون مناطها الصدور عن الروح المحلية الخالصة ، والقدرة على تصويرها والنفاذ الى أعماقها بما يحرك الفكر والوجدان . ومن ذا الذي لا يذكر أيضا قول شاعر آخر تضرب بذوره في أغوار النفس البشرية ، فلا تزال تورق غصونها ، وتزهر أوراقها ، فتسر الناظرين ، وتملأ القلب صفاء والنفس ثراء :

بلادي - وان جارت على - عزيزة
وأهلي وإن ضنوا على كرام

ذلكم هو الانسان الشاعر العربي القديم ابن أرضه الصحراوية الجافية ، ولكنها الأثيرة إليه . فهي تنبض في عروقه . وهو يخرج منها ويرتد إليها ، هي مصدره ومورده ، مهاده ومنتجعه ومرجعه . وعز ذلك مهادا ومنتجعا ومرقدا . بل إننا إذا رجعنا القهقرى في التاريخ ، إلى مرحلة أبعد في مسيرة شعر الوطن في لغتنا العريقة الساحرة ، ألفينا شاعرا من البادية يعبر عن مهوى قلبه الى بلده ، ولو أنه رقعة قفراء موحشة لا يلذ العيش فيها فيقول :

وكنا ألفناها ، ولم تك مألفا
وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها
هواء ولا ماء . .. ولكنها وطن

لهيب الوجد في أنفاس الشاعر الجاهلي

ان نظرة منزوية متعمقة في شعر الأطلال والبكاء على الدمن في الجاهلية ، لتكشف لنا أن هذا الشعر في جملته غناء حزين لفراق الوطن وأهله . أوليس محوره الحنين الى الماضي ، والتعبير عن أصدائه وذكرياته العالقة بالقلب حتى آخر العمر ؟ وأجمل الذكريات ما يرجع الى مدارج الطفولة ومعاهد الشباب على ارض الميلاد . ولما كان الصبا موسم تفتح القلب للحب وائتلاف الجنسين بدافع من الطبيعة ، فقد امتزجت من الشعر عاطفة الحب بعاطفة الانتماء الى الوطن والحنين إليه ، واختلط عبير الأرض بأنفاس الحبيب الذي أنبتته ، وعز كل منهما بعزة الآخر . فالوطن هو الذي يمنح الانسان تلك النعمة الكبرى ، نعمة الحب الأول ، ومن ثم يزيد القلب ولها به وولاء له ، ولا ينفك يذكر أنه مدين له بنشأته وسعادته في مطلع العمر . وحين تصبح (الحياة الحب والحب الحياة) كما يقول شوقي ، فإن محبة الوطن والدفاع عنه يغدوان محبة للحياة والحب ودفاعا منهما . وإذ يهتف الشاعر بقوله (ما الحب الا للحبيب الأول) فكأنه يقول : ما الحب الا للوطن .

ولئن كنا نحس أن لهيب الوجد في أنفاس الشاعر الجاهلي حين يذكر أحبته ، لا يقتصر على موطن واحد ، بل تتعدد المواضع التي يبكي على أطلالها في شعره ، ذلك لأن الصحراء كانت كلها وطن الشاعر البدوي الذي لا يعرف الاستقرار في مكان ، بل يقضي حياته شأن الرعاة باحثا عن الأماكن ، التي يتوافر فيها الكلأ والماء والنار . ولذلك تتعدد حبيباته بتعدد تلك الأماكن ، وهو اذ يحبهم جميعا ، ويبكي على فراقهن ، إنما يولع بالصحراء التي ترعرعن على أديمها . فهو المحب عاشق الوطن وأهله . وليس كذلك شعراء الحواضر في الاسلام ، حيث الاستقرار ، فما يعشق « قيس » غير « ليلى » ، وما هام « كثير » بغير عزة » ، اذ كان للوطن موضع محدد من البلاد اتخذه الشاعر سكنا له ، وعرف فيه من أسرت لبه وأصبحت عروس الهامه .

وفي ضوء هذا النظر يمكن القول ، ان شعراء البادية اذ يخصون الأهل بالحب خالصا إنما يدخل شعرهم في هذا الغرض في باب شعر الوطن ، طالما أنهم لا يعرفون المقام في موضع بعينه من الأرض . ولذلك تتقارب بل تتجه المشاعر والمعاني التي تتضمنها قصائد تمجيد الوطن . وتلك التي تتضمنها قصائد تمجيد الأهل والتضحية دونهم .

فإذا كانت الأرض أولى بالاعزاز والتكريم مهما قست على محبها ، فكذلك الأهل لأنهم الوطن في صورة انسان . بل ان شاعر البادية قبل الاسلام كان ينصر أخاه ظالما أو مظلوما ، كما يقول في ذلك الشاعر الجاهلي « دريد بن الصمة » :

ولما رأيت الخيل قبلا كأنها
جراد يبارى وجهة الريح مغتدى (١)
أمر تهمو أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد (٢)
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى
غوايتهم أنى بهم غير مهتدى (٣)
وهل أنا إلا من غزية ، ان غوت
غويت ، وان ترشد غزية أرشد (٤)
دعانى أخى والخيل بينى وبينه
فلما دعانى لم يجدنى بقعدد (٥)
أخ أرضعتنى أمه من لبانها

بشدى هيفاء بيننا لم يجدد (٦)
وكنت كذات البو ريعت فأقبلت
إلى قطع من جلد بو مجلد (٧)

صور الأمومة والأبوة في الشعر الجاهلي

وتبدو الصلة والوثيقة التي تبلغ حد الوحدة العضوية بين الوطن والأهل ، أو الأرض والانسان الذي يسكنها من ذوى الرحم ، في الصور الفنية التي استخدمها الشاعر للتعبير عن عاطفته ، وهى كلها مستقاة من نبع الأمومة التي تمثلها الأرض كما تمثلها القربى . وكم لشعرائنا الأقدمين من روائع فنية في تصوير نهر الحنان المنساب بين الضلوع عطفا على أرض الميلاد أو عطفا على أهليها . ولا يكاد المتلقى يشعر بأدنى اختلاف في مسرى الشعور بين هذا وذاك . وصور الأمومة التي عبر بها « دريد » عن قوة انتمائه إلى ذوى رحمه لا تختلف عن صور الأبوة التي نجدها في قصيدة « أمية بن أبي الصلت » مخاطبا أبنا له بدت منه ظاهرة العقوق :

غدوتك مولدا وعلتك يافعا
تعل بما أدنى إليك وتنهل (١)
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت
لشكواك إلا ساهرا أتململ (٢)
كأنى المطروق دونك بالذى
طرقت به دونى ، وعينى تهمل (٣)
تخاف الردى نفسي عليك ، وانها
لتعلم أن الموت حتم مؤجل (٤)

ولقد وعى الشاعر العربي قديما تلك الوحدة بين المكان والسكان بحكم الطبيعة ومن ثم وحدتها في خوالج النفس وانفعالاتها فقال :

إذا أنت لم ترع العهود لمنزل
فلست براع عهد أهل المنازل

قصيدة خالدة في الحنين الى الوطن

على أن أروع ما حققه لنا التراث الأدبي من شعر الغناء بالوطن والحنين اليه والى أهله حنينا لايتباين الشعور به أو ينقسم بينها ، تلك القصيدة الشجية التي قالها مالك بن الريب التميمي ، يصور أشواقه الحرار الى موطنه وشجوه المعذب لفراقه الأبدى بعد أن أصبح دنو أجله حائلا بينهما ، اذ أدركته علة في الطريق بعيدا عن بلده ، وأنشد قصيدته هذه وهو يحس بالموت يدب في جسده ، فكان بذلك أطول الشعراء نفسا في تلك الساعة المرهوبة . وما زالت أبياته تحمل بذور الخصب والازدهار ، ولن تعقم أبدا لما تعيش به من أسى انساني دفين في الحسرة على العمر حين تسدل يد الدهر الستار فجأة بين عينى المرء وبين مجالى بلده وأحبابه ، فيموت في أرض غريبة :

ألا ليت شعـرى هل أبيتَـن ليلة
بجنب (الغضا) أزجى القلاص النواجيا؟[1]

فليت (الغضـا) لم يقطـع الـركب عرضه
وليت (الغضـا) ماشى الـركاب لياليا !!
لقد كان في أهل (الغضا) لو دنا (الغضا)
مـزار ولـكن (الغضـا) ليس دانيا

ان هذا الترديد الشاجى لاسم (الغضا) وطن الشاعر البعيد عن مدى رؤيته ، والذي لم يبـارح طيفـه خيالـه من أسرار العذوبـة الحزينـة في تلك الأبيات الثلاثة وموقعها العميق من القلب .

وهذا التكرار يتصاعد في نغمات موجية كل منها أعلى من الأخرى ، وبالتالي أشد وقعا . فقـد ذكر (الغضا) مرة واحدة في البيت الأول ، ثم مرتين في البيت الثاني ، ثم ثلاث مرات في البيت الثالث .

وهو احساس انساني صادق ، فليس أحب الى المرء من ترديد اسم من تحبه نفسه ، وقد استهل الشاعر قصيدته الملحمية بهتاف حائـر لهيف يشى بحرمانـه ولهفته في أرض الغربة . ويكاد هذا الهتاف يبلغ مبلغ الصرخة بطلقهـا من أعماق صدر محـروم منـزوف الحشا .. محروم حتى من شعاع الأمل . فما الـذي يأمل فيه مغترب عليل حانت منيته ؟ ومع ذلك فإن « مالكا التميمي » يتساءل باكيا عما اذا كان القدر يترفق به قليلا قبل أن يسلم آخر أنفاسه ـ فيعيده بضع سويعات فقط إلى ينابيع الحياة القديمة تكتحل فيها عينـاه بمـرأى من يحـب : الوطـن والأهـل ..

ويستمتع حينا بالعودة الى ينابيع الحياة القديمة .. الى رعى الابل كما كان يفعل قرير العين قبل ذهابه الى ساحة الحرب ؟ . انها لبلة واحدة تلك التي يتمناها قبل أن يغمض جفنيه لآخر مرة . هل يسمح الزمان الضنين بوقفة قصيرة أودع فيها (الغضى) الوداع اخير ؟ وهل يمن على القضاء بومضات من أطياف الجمال تقبسها عيناي من الـديار الحبيبـة ، وتلقـى النفس عليها ـ آخر ما تلقى من مباهـج الـدنيا ـ الجسر الفاصل بين الحياة والموت ؟

وتبلغ الحسرة أشدها حين يتمنى (مالك) لو لم تكن القافلـة التـي أقلتـه قد غادرت (وادى الغضا) ، ولات حين عودة ! ثم يتمنى مادامت قد

أبت إلا الرحيل ، لو أن الوادى قد انتقل من موضعه وسار في ركاب القافلة ، فأصبح سمير الشاعر ورفيقه عبر ليالي الرحلة ! .. وليس ثمة تجسيد أو تشخيص أجمل ولا أوقع أثرا من تلك الصورة المتحركة التي عبر بها الشاعر عن احساسه بموطنه وحنينه إليه . فهو ليس دارا ولا أرضا أو هواء . بل هو حبيب يؤنس الشاعر بطلعته ، ويدفئه بأنفاسه ويصحبه في سفره .

وفي البيت الثالث يمتزج الوطن بالأهل امتزاج الزهرة بالشجرة ، والشجرة بالأرض ، بل الروح بالجسد والعبير بالضياء . وكأن الشاعر يريد أن يقول لنا ان الوطن هو الأهل . فلولاه لما كانوا . فاذا حضر (الغضا) فقد دنا الأحباب . واذا كان البيتان ، الأول والثاني ، يفصحان في رقة وأسى شفيف عن لوعة (مالك) وحيرته فتكثر فيهما تساؤلاته وتمنياته . فان البيت الثالث ينم عن يأسه اذ يقول في صوت قاطع كأنه صوت القدر معبرا عن الحقيقة الفاجعة : (ولكن الغضا ليس دانيا) .

وتتابع أبيات القصيدة في نغم جياش أسيان ، كما تتوالى صورها الفنية الملهمة من صميم البيئة ، ومن داخل الشاعر لا من الخارج . ويحدث الشاعر نفسه أحيانا ، ثم ما يلبث أن يحاور صاحبيه اللذين حضرا ساعة احتضاره ، وتنال ذكرياته عن أحبابه الذين سيبكونه ، فمنهم الحضور ، وهم سيفه ورمحه وجواده الذي سيجر وحده عنانه بحثا عن الماء ليروى ظمأه ، بعد أن عجز صاحبه الفارس عن أن يكون ساقيه . ومنهم الغائبون وهم أمه وابنتاها (أختاه) وخالته ، وتلك العزيزة التى يستحى أن يذكر اسمها أو صفتها فيرمز لها . وهى زوجته الحبيبة بقوله (وباكية أخرى تهيج البواكيا) :

تذكرت من يبكى على فلم أجد
سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر خنديذ يجر عنانه
الى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

ولكن شجوه أبلغ الشجو هو حرمانه وطنه :

ولما تراءت عند (مرو) منيتى
وخل بها جسمى وحانت وفاتيا (١)
أقول لأصحابي : ارفعونى لأننى
يقر بعينى أن (سهيل) بدا ليا

فكل مناه ساعة النزع أن يرفعه أصحابه من الأرض لتقر عينه برؤية سهيل ، ذلك النجم الثابت الذي يطلع من جهة اليمن وهي مسقط رأس آباء الشاعر وموطنهم الأول . وتلك صورة فريدة ، مكانها يتخطى عيون الشعر الاقليمى الى روائع العالمى ، لأصالتها في التعبير عن الحس الانسانى بالمصير الفاجع ، انطلاقا من بقعة صغيرة في هذا الكون ، كأنما اختصر فيها العالم كله ، ومن لحظات قصار كأنما تركز فيها الزمان والوجود . ومما يسترعى نظر المتلقى أن (مالك بن الريب) قد استخدم وسائل وأساليب لاتختلف كثيرا عما نعرفه والآن ، برغم انقضاء أكثر من ألف وثلاثمائة عام على إملائها .. فهو يستخدم المزج بين مشهد وآخر مختلف عنه مؤلفا بينهما في نسق كالهارموني في الموسيقى . وصورة تشكل مايشبه اللوحات ، ولكنها لوحات متحركة كأنها سينمائية . وهو يجيد تحريك المجموعات البشرية . ويتم كل ذلك بأسلوب تلقائي غير مصطنع . وتسجيله للذكريات يمثل احياء لها يتسم بالحرارة والتداعى . وأهم من ذلك كله تلك الروح الانسانية المشعة في القصيدة .

وشعر الغربة والحنين إلى الديار والأحباء كما تمثل في يائية « مالك بن الريب » أصل في تراثنا العربى ، لما يعبر عنه من مشاعر جياشة ناجمة عن طبيعة الانسان العربى ، وقيمه الأخلاقية الانسانية ، وفي مقدمتها إلف الأحباء والأشياء ، والوفاء لها ، والتضحية في سبيلها ، كما سبق أن نوهنا ، وكما عبر عن ذلك أبو الطيب المتنبي في قوله :

خلقت ألوفا لو رددت الى الصبا ..
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

فلاغرو ، أن نجد كثيرا من النماذج الشعرية الأخرى ، التي تفيض وجدا ينساب متدفقا من وجدان الشاعر الى وجدان القارىء وتزخر بالاحساس اللاعج الذي يعتصر القلب اعتصارا ، ويكاد يثير العبرات في العيون . ومثل هذا الاحساس نجده ونشعر به ، في قول شاعر غريب يعبر عن ندمه اذ فارق أحبته بفراق وطنه ، وما الأهل والأحبه الا جسد الوطن :

وارحمتا للغريب بالبلد النازح ،
ماذا بنفسه صنعا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا ،
بالعيش من بعده ولا انتفعا !!

وقد وسعت اللغة العربية التعبير عن هذه المشاعر النفسية المرهفة بفضل ثرائها المذخور عبر عصور موغلة في القدم ، مما أتاح للموهوبين من أبنائها الشعراء الذين تسرى في دمائهم خصائص الشعب العربي في التعلق بالوطن والدفاع عن أهله أن يتركوا لنا رصيدا لايغنى من اللوحات الفنية التي تضارع أجمل ما صاغه الشعراء في الآداب العالمية على اختلاف الازمان والأوطان . ■■

---

(١) يقول الشاعر في البيت السابق :
أحب بلاد الله مابين منعج
إلى وسلمى أن يصوب سحابها

(٢) قبلا : عيانا ومقابلة . يبارى : يسابق . مغتد : في الغداة .

(٣) استشهد الامام علي بن أبي طالب رضى الله عنه بهذا البيت في احدى خطبه منتقداً مخالفيه في الرأى من جنده ، لقصورهم في الوعى السياسى ، واضطراره الى السكوت عنهم درءاً للفتنة .

(٤) كنت منهم : أى كنت على رأيهم مع أنى كنت أراهم غادين ضالين وأنى غير مهتد بأتباعهم .

(٥) غزية : حى من جُشَم وهم وهط الشاعر الأدنون .

(٦) القعدد : الجبان يقعد عن نصرة قومه ، أى أنى عطفت عليه لانقاذه .

(٧) لم يجدد : لم يقطع رضاعنا له حتى أتممنا مدة الرضاع .

(٨) البوّ : جلد ولد الناقة يحشى تبناً ، فتجد أمه رائحته فيه ، فترأمه وتدر اللبن له .

(٩) القلاص : جمع قلوص وهى الناقة الطويلة القوائم . النواجى : جمع ناجية وهى السريعة . ومعنى ليت شعرى .. الخ . ليتنى أعرف جواب هذا الاستفهام . وهى صيغة تعبيرية شائعة في شعرنا القديم تدل على حيرة الشاعر في مواجهة لغز الوجود والكون المجهول وتساؤلاته وتطلعاته الدائمة الى المعرفة .